﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾

[إبراهيم: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذِكر الغاية الكلّيّة إلى صـورةٍ من صوَرها

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة إرسال موسى ﷺ إلى قومه؛ لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور، وتذكيرهم بأيّام الله تعالى، ناسَبَ أنْ يذْكرَ صورةً من تلك الصّوَر الّتي أعانت بني إسرائيل على الخروج من الظّلمات إلى النّور، وهي إخراجهم من ظُلْم آل فرعون واستعبادهم لبني إسرائيل، فالمناسَبَة بيْن الآيتَين هو الانتقال من ذِكر الغاية الكلّيّة، إلى ذِكر صورةٍ من صوَرها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنجَىٰكُم﴾: نجو، أصل النَّجاء: الانفصالُ من الشّيء، ومنه: نَجا فُلانٌ مِن فلانٍ، وأنْجَيْتُهُ ونَجَّيْتُهُ. قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: 53] وقال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: 33]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكان المُرتفِع المُنفَصِل بِارْتفاعه عمّا حَوْله، وقيل: سمّي بذلكَ لِكوْنه ناجيًا مِن السَّيْل، ونَجَّيْتُهُ: تَرَكْتُهُ بنَجْوَةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][1]، وكلُّ ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى الخُلوص مِن خَطَرٍ مُحْدِق أو عذاب أو غرَقٍ أو كَرْب، ما عَدا صيغَتَي (ناجَى)، (تَناجى)[2]، والمعنى المحْوَريُّ: خُلوص الجِرْم – أو نفاذُه مُرْتفِعًا من بيْن ما يُحيط به أو يجاوِرُهُ. كالأرض المُرتفِعة

(1) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (نجو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).

وسَنَدَي الوادي. وكالأغْصان تمْتَدُّ مِن ساق الشَّجر[1]، ومعنى الإنجاء في الآية الإنقاذُ من عذاب فرعون الدّائم.

2) ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: أصلُ السَّوْم الذَّهابُ في ابْتِغاء الشَّيء، فَهوَ مَعْنًى مُركَّبٌ من الذَّهاب والابْتِغاء، فأُجْرِي مجْرَى الذَّهاب في قَوْلهم: سامَ الإبِل؛ فَهِيَ سائِمةٌ، ومجْرى الابْتِغاء في قَوْلِه تَعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2]، وسامَهُ الأمْرَ سَوْمًا: كلَّفَه إيّاه، أوْ أوْلاهُ إيّاه، وأكثر ما يُستعمَل في العذاب والشَّرِّ والظُّلْم. وفي التَّنْزيل: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يولونَكُم، والسَّوْم أنْ تُجَشِّم إنسانًا مَشقَّة أو سوءًا أو ظُلْمًا، وسُمْتُه خَسْفًا، أيْ: أوْلَيْتُه إيّاه وأرَدْتُه عليه. ويقال: سُمْتُه حاجَةً، أيْ: كَلَّفْتُه إيّاها، وفي حَديث عليٍّ: "مَن تَرَكَ الجهاد ألْبَسَه اللّه الذِّلَّة وسيمَ الخَسْفَ"، أي: كُلِّفَ وأُلْزِمَ. والمعنى المِحْوريُّ امتدادُ بَقاءٍ، أو مرورٍ وذَهابٍ في حيّزٍ بلا حَدٍّ[3].

3) ﴿سُوٓءَ﴾: السّوءُ: كلُّ ما يَغُمّ الإنسانَ مِن الأمور الدُّنيويّة، والأُخْرَويّة، ومِن الأحوال النّفسيّة، والبَدَنيّة، والخارِجَة، مِن فواتِ مالٍ، وجاهٍ، وفَقْدِ حَميم، وقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22]، أي: من غير آفَةٍ بها، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل: 27]، وعبّر عن كلّ ما يَقْبُحُ بِالسّوأى، ولذلك قوبِلَ بالحُسْنى، قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10]، كما قال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: 26][4]، والسّين والواو والهَمْزة، إنّما هي مِن باب القُبْح. تَقولُ: رَجُل أسْوَأ؛ أيْ: قَبيح، وامْرَأةٌ سَوْآء؛ أيْ: قَبيحَةٌ. وسُمّيَت النّارُ سوأى، لِقُبْح مَنْظَرِها[5]. والمعنى المِحْوريُّ: عَيْبٌ أو نَقْصٌ (قُبْحٌ أو فسادٌ أو مَرَض) يُخالِط ظاهرَ الشّيء أو باطِنَه: كالبَرَص والمرَض، وفسادِ العمل.

4) ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: حيا: (الحياة) ضِدُّ المَوْت، والحيُّ ضدُّ الميِّت، واسْتَحْياه واسْتَحيا منه، بمعنى مِن الحياء، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: 49]،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (سوم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوم).
(4) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوأ).

وقوله تعالى: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا﴾ [البقرة: 26]، أيْ: لا يَسْتَبْقي[1]، والمعنى المحوريُّ: امْتِلاءٌ بالطَّراءَةِ الّتي لها حِدّةٌ ما أو فاعليَّة تتمثَّل في رَهافَة الحِسّ وفي النّموِّ حَرَكةً أو امتدادًا: كجِرْم الحيَّةِ مُمتدّا يتحرَّك (والامتداد يُصوِّر النُّموَّ)، وتتجلّى طَراءَتُه في مُرونَتِه وتَلَوّيهِ دونَ أنْ ينقطعَ، وكلّ ما في القرآن مِن التّركيب هو مِن الحياة ضدِّ الموت، عَدا التّحيَّة والحياء. ومنه الاستحياء: إبْقاءُ الشَّخْص حيًّا، أيْ: عدَمُ قَتْلِه، قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 49، الأعراف: 141، إبراهيم: 6]، وكذلك ما في [الأعراف: 127، والقصص: 4، وغافر: 25][2].

5) ﴿بَلَآءٌ﴾: الباء واللّام والواو، والياء، أصْلان: أحدُهما إخلاقُ الشّيءِ، والثّاني نَوْعٌ مِن الاخْتِبار، ويُحمَل عليه الإخبارُ أيْضًا[3]. والبَلاءُ: الاختبارُ، ويكون بالخير والشَّرِّ. يقال: أبْلاهُ اللّه بَلاءً حَسنًا. وأبْلَيْتُهُ معروفًا. قال زُهَيْر:

جَزى اللّهُ بالإحسانِ ما فَعَلا بِكُمْ *** وأبْلاهُما خيرَ البَلاءِ الّذي يَبْلو

أيْ: خيرَ الصَّنيع الّذي يَختبِر به عبادَه[4]. والمعنى المحوريُّ هو: شِدَّةُ تحوُّز الشّيءِ - أو حَوْز الشّيءِ بشِدَّةٍ - لِمَدًى طويلٍ، ويَلْزمُه بيانُ حال الشّيءِ الّذي حِيزَ في شِدَّةٍ، كالنّاقَة المُبْلاة لِلمَنونِ؛ أي: المَحْبوسَة لَهُ بِتلك الصّورة، والدّائمَةُ السَّفَر، كما يُفْهَم مِن قَوْلهم: ناقَةٌ بِلْوُ سَفَرٍ[5]. ومنه مع بيان الحال: "ابْتلاهُ اللّهُ: اخْتَبَرَه، كأنَّما اختَبَر صبْرهُ وتحمُّلَه الاحْتباسَ والبقاءَ على وَضْعٍ شديدٍ، ويقال أيضًا: بَلَوْتُه: امْتَحَنْته". ومِن هذا "البلاء: الاختبارُ والمِحنَة والغَمُّ"[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكر الآية قولَ موسى عليه السلام لِبَني إسرائيل، موصيًا إيّاهم أنْ يَذْكروا نعمةَ اللّه تعالى عليهم، أنْ أنْجاهم من عذاب آل فرعون المُتمثِّل في صوَرٍ عظيمة وبلاءات جَسيمة من

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (حيا).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلو).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بلا).
(5) ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب: 2/367.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو).

تذْبيح الأبناء، واستحياء النّساء للخِدْمة، وقد وَصَفت الآية ذلك البلاءَ بالعظيم، لأنَّ فيه زَهْقًا لأرواح الرِّجال الّذين مِن شأنهم القيام بأمور بني إسرائيل مُكنةً وقوّة، وإبقاءً لأرواح النّساء اللّواتي يّحْتَجْن إلى مَن يقوم عليهنَّ بالرِّعاية والعناية، فالبلاء باعتباره شاملًا للجميعِ، مُنزلًا حالَ بني إسرائيل في الحَضيض والذِّلة والمَهانة.

أعظمُ البلاء في ذهابِ مَن به قِوامُ الأمر وبقاء المَعاويز بغير وَليِّ أمْرٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نَوعُ الواو ودلالتها:

جاءت الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ لعطْفِ هذه الجملة على جملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ [إبراهيم: 5] باعتبار أنَّ غرَض الجملتين هو التّنظير بسنَنِ ما جاء به الرُّسل السّابقون من إرشاد الأُمم وتذكيرها، كما أنَّ القرآن قد أُنزل لذلك[1]، فهي من عطْفِ الخبَرِ على الخبَر، ومن باب عطْفِ الفرْع على الأصل، فإنَّ الإرسالَ أصلٌ، وهذا الخبَر صورةٌ من صوَر إرسال موسى ﷺ لِبَني إسرائيل لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور.

إنجاء بني إسرائيل من الظُّلم صورةٌ من صوَر الإخراج من الظُّلمات إلى النّور

غرَضُ استعمال ﴿وَإِذْ﴾ البَلاغيُّ:

(إذ) في اللّغة ظَرْفٌ موضوعٌ لِزمان نِسْبةٍ ماضيَة، فالظّرْف (إذ) دلَّ على فعل أمْر مُقدَّرٍ تقديره (اذْكُر)، وتوجيه الأمْر بالذِّكر إلى الوقت الدّالِّ عليه الظّرْف (إذ) دون ما وَقَع فيه مِن الحوادث مع أنَّ الحوادث هي المقصودة بالذّات؛ هو المبالَغةُ في إيجاب ذِكرها؛ لأنَّ إيجاب ذكْر الوقت إيجابٌ لِذكر ما وقَعَ فيه بالطَّريق البرهانيِّ، ولأنَّ الوقت مُشتملٌ عليها، فإذا استُحضر كانت حاضرةً بتفاصيلها كأنَّها مشاهَدةٌ عيانًا[2].

استحضار الزّمن بَريدُ استحضارِ ما فيه من أحداث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/191.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/79.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

تَوجيه الأنظار لِما فيه من الكنوز والأسرار

آثَر النَّظم ذِكر القائل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾، مع تقدُّم ذِكره في الآية السّابقة، فلَم يَقُل: (وإذ قال لهم)، فهذا من وضعِ المُظهَر مَوضِعَ المُضْمَر، وفي إعادة اللّفظ بنَصّه وفَصّه معنى التّقدير والتّبجيل، ويُضاف إلى ذلك أنّ ذِكر القوم مناسبٌ للغاية الّتي أرادها النّظْم القرآنيُّ، وهي بيان حِرصه ورجائه في صلاحهم وهدايتهم، فهُم قومه وهو منسوبٌ إليهم، ولإنزال الخبَرَين بمنزلة انفرادِ كلٍّ منهما عن الآخَر، فكأنَّهما خبَران مُنْفصلان لا تعلُّقَ لأحدهما بالآخَر، ففيه إشعارٌ بضرورة توجيه الأنظار لِما فيه من الكنوز والأسرار.

توجيه المُتشابه اللَّفْظيِّ في الحذْف والذِّكر:

كـثرةُ النِّـعـم تـوجـبُ مـزيـدَ تشريفٍ وتقريبٍ

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ محذوفًا منه أداة النّداء والمنادى، بخلاف ما جاء في آياتٍ أُخرى من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾ [المائدة: 20]، وذلك أنّه لمّا ذكَّرهم في آية المائدة بضُروبٍ من الآلاء والنّعم الجِسام، من جعل الأنبياء فيهم، وجعلِهم ملوكًا وإعطائهم ما لَم يُعْط غيرهم؛ كان ذلك تعريفًا باعتنائه سبحانه بهم وتفضيلهم على مَن عاصرَهم وتَقدَّمَهُم من أُمم الأنبياء قبلهم، فناسَبَ ذلك نداء موسى ﷺ بقول: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ [المائدة: 20]، بالإضافة إلى ضميره؛ إنباءً بالقُرْب والمَزيَّة، وناسَبَ هذا النّداء المُنبئُ بالاعتناء ما تقدَّم من تخصيصهم بالتّشريف بما مَنَحَهم من الآلاء والنّعم الجِسام. ولمّا قَصَد في آية سورة إبراهيم تذكيرَهم بنجاتهم من آل فرعون وما كان يَسومهم به، من ذَبْح ذُكورِ أبنائهم واستحياء نسائهم للمِهْنة، ولَم يُذكر هنا شيءٌ ممّا في آية المائدة؛ لِما اقْتصرَ عليه هنا من التّذكير بمُجرَّد الإنجاء، فناسَبَ ذلك الاقتصار على خِطابهم دون النّداء، رَعْيًا للمُناسَبة[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/126.

غرضُ الأمر ودلالتُه:

يَحسُن الامتنانُ عـنـد غـلـبـةِ النِّسيان وقُبْح الكفران

يُشير فعل الأمر الطّلَبيُّ ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ إلى قُبح نسيان النِّعم، كأنَّه يقول لهم: حريٌّ بمثلكم أن يَذكرَ دومًا دون نسيانٍ لِما كان فيكم من بلاءٍ وما صِرْتم إليه من نعيم؛ فالنِّعم تَتْرى والآلاءُ مُتواصِلة، فالنّسيان يكون حينئذٍ مَثلبةً، وكأنَّ النِّعمَ "لكثرتها وتعاقبها صارت كالأمر المعتاد، فصارت غَلَبة ظهورها وكثرتها سببًا لوقوعها في محلّ النّسيان"[1]، فحسُن التَّذكير ووجَب لِمَحْو كُفران النّعم الّذي يغشاهم، كما أنَّ الذِّكر يوجب المزيد من الاعتزاز بالنّعم والمُنعِم، وتَرْكه يوجب المؤاخَذة والعذاب الشّديد[2].

فائدة الإضافةِ:

نـعـمـةُ الـلـه لا تنحصرُ في بابٍ ولا تَـسَـعُـهـا جميعُ الأبواب

يكتسب المضاف ﴿نِعۡمَةَ﴾ دلالته من دلالةِ ما أضيف إليه، وهو هنا لفْظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، وقد اكتسبت النِّعمة قيمتها وشَرَفها من إضافتها إلى خالقها؛ فالإضافة إضافةُ تشريف وتعظيم، ثُمّ هي منَّةٌ بعدَ منَّة لَكُم كيْ يغشاكم الإيمان، كما أنَّ لفْظ ﴿نِعۡمَةَ﴾ اكتسب معنى العموم بإضافته إلى اسم الله تعالى[3]؛ لأنَّ نعمة الله لا تنحصر في بابٍ، بل لا تَتَّسع لها جميع الأبواب.

نكتةُ إفراد النِّعمة:

الـنِّـعـمـةُ بـعـظـمـتِـهـا وتفرُّدِها وكثرةِ مـا فـيـهـا من لُطفٍ وجمال

إفراد النّعمة في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ يَشي بأنّه ليس المقصود منه التّأمُّل في أعداد نِعَم الله تعالى، بل المقصود منه التّأمّل في جنس نِعَمه؛ لأنَّ هذا الجنس جِنسٌ لا يَقْدر غيرُ الله عليه، فمَن الّذي يَقْدر على إعطاء نِعمة الحياة والصّحَّة والعقل والهداية والصَّون عن الآفات والإيصال إلى جميع الخيرات في الدُّنيا والآخرة، فقوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ المراد منه التّأمّل في هذا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/319.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 6/266.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 6/266.

النَّوع من حيْث إنّه ممتازٌ عن نِعْمة غيرِه، ومعلومٌ أنّ النِّعمة متى كانت على هذا الوَجْه كان وجوب الاشتغال بشُكْرها أتمّ وأكمَلَ[1].

ثُمّ إنّ بناء النِّعمة على اسْم الهَيْئة، ومعلومٌ أنّ الهيْئة يدخل فيها أفراده الّتي تركَّب منها، والنَّظر إلى دِقَّة صُنعها وما فيها من جمالٍ وإبداع ولُطْف، فكأنّ المراد تفاصيل كلِّ نِعمة بمفردها وما اشتملَتْ عليه من نِعَم لا تُعَدّ ولا تُحصى[2]، وبذلك يجتمع في إفراد النِّعمة نُكْتتان؛ الأولى النّظَر إلى جنس النّعمة، والأُخرى النّظَر إلى تفاصيل النّعمة الواحدة.

بلاغةُ استعمال حرْف الاستعلاء:

نعمةُ الله تعالى إذا تمكَّنَتْ من قومٍ حلَّت فيهم

الأصل في (على) الاستعلاء الحقيقيُّ، وقد ذكرَتِ الآيَةُ استعلاء النِّعمة على بني إسرائيل: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وهو ما يُشير إلى أنَّهم خاضعون لمنَّتها، راضونَ بالانطِواء تحت لوائها، ومَن كان هذا حاله فعلَيه أن تستقيم حاله، كما أنَّ الاستعلاء جاء مُشيرًا إلى معنى (في) الخاصّة بالوعاء والاشتمال، فكأنَّ مكانهم صار مَحلًّا للنِّعمة بعد استعلائها وتَمكُّنِها، وفي هذا مزيد امتنانٍ عليهم، فإذا حلَّت النِّعمة عليهم فهي فيهم، وهذا من بديع الإيجاز والاختزال في استعمال الحُروف، وهو أوْلى من القوْل بالتَّناوب.

نكتة الأمْر بذِكر النِّعمة لا المُنْعِم:

تـقـلـيـدُ بـنـي إسـرائـيـل نـزولٌ عن الرُّتبة العليَّة وانـخـفـاضٌ عن المَنزلة البهيَّة

بنو إسرائيل عادَتُهم الانشغال بالنِّعمة عن المُنْعِم؛ لذا أمرتْهُم الآية بذِكر النِّعمة: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ولَم يأمرهم بأن يذكروا الله تعالى مباشرة، وذلك بناءً على طبيعتهم المُتلهِّفة للنِّعَم لا للمُنعِم، فهم مُرتَهنونَ بها، بخِلاف أمّة النَّبيِّ ﷺ الّذين انشغلوا بالمُنعِم لا النِّعمة، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/319.
(2) هنداوي، الإعجاز الصرفيّ، ص: 196.

ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ [الأحزاب: 41]، وفي الانشغال بالمُنعم رعايةٌ لِما أنْعَم به وأعطى، فكان الاشتغال بذاته أوْلى من الاشتغال بنعمته، وفي هذا المَلْحظ البيانيِّ دعوةٌ إلى الإنشغال بالذِّكر الحقيقيِّ، وهو أن يكون لله وحْدَه، وتَرْك تقليد بني إسرائيل في كونهم لا يستجيبون لأمر الله تعالى إلّا بالنِّعم والتّذكير بدَفْع النِّقم.

نوع ﴿إِذۡ﴾ ومعناها:

استحضارُ الأوقاتِ العجيبةِ داعٍ للمِنن الجليلة

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم﴾ ظَرْف للنِّعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامهُ عليكم ذلك الوقت، ويجوز أن يكون ﴿إِذۡ﴾ بَدَلًا من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهو من بَدَلِ الاشتمال[1]، وفي الإتيان بـ(إذ) المُقتضيَة للجملة استحضارٌ للتَّكوين العجيبِ المُستفاد من هيئة الفعل؛ لأنَّ الذِّهن إذا تصوَّر المصْدَر لَم يَتصوَّر إلّا معنى الحدَث، وإذا سمع الجملة الدّالَّة عليه تصوَّر حدوث الفعل وفاعله ومفعوله ومتعلّقاتِه دفعةً واحدة؛ فنشأت من ذلك صورةٌ عجيبةٌ[2].

نكتةُ التَّعبير بمُفرَدة الإنجاء:

تمامُ المِنَّة في الانفصال التّامِّ مع نصْرِ المؤمنين ودَحْض الظّالمين

آثَر النَّظْم التّعبيرَ بلفظ الإنجاء في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم﴾ لِمَا في اللّفظ من معنى الانفصالِ من الشّيء والبُعدِ عنه، وهذا ما حدث مع بني إسرائيل إذ ابتَعَدوا عنه مُنفصلينَ في ناحيَتَين؛ البرِّ والبحر، ثُمّ إنَّ في لفظة النّجاة تبشيرًا من طَرْف خفيٍّ؛ لأنَّها تعني المكان المرتفِع عمّا حَولَه[3]؛ فكأنَّ في الآية بشارةً بارتفاع شأنهم وعلوِّ مكانتهم، ثمَّ إنَّ الإنجاء ليس مُجرَّد التَّخْليص من أيديهم وهُمْ على حالهم في المُكْنَة والقُدْرَة بل بإهلاكهم[4]، وهذا أعظَمُ في الامتنان.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/540.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/319.
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/80.

بلاغةُ استعمال الصيَغ:

سرعةُ الإنجاء منَّةٌ أُخرى في الإنجاءِ

استعمل النَّظْم صيغة الفعل (أنجى) دون (نجَّى)؛ وذلك لدلالتها على السُّرعةِ في الإنجاء، فصيغة (أفعل) أشَدُّ سرعةً في التَّخلُّص من الشِّدَّة والكَربِ؛ ذلك لأنّه لمّا كانت النّجاة من البحر لَم تستغرق وقتًا طويلًا ولا مُكثًا استعْملَ (أنجى)[1]، فاللَّفظ مناسِبٌ للنِّعمة الّتي أنعمها اللّه عليهم، إضافةً إلى ذلك كلمة (نَجَّى) تكون وقت نزول العذاب. وكلمة (أنجى) بمعنى يمنَعُ عنهم العذاب، فالأولى للتَّخليص من العذاب، والثّانية يبْعدُ عنهم عذاب فرعون نهائيًّا، ففَضْل اللّه عليهم كان على مرحلتَين: مرحلة أنّه خلَّصَهم من عذاب واقِعٍ عليهم، والمرحلة الثّانية أنّه أبْعَدَهم عن آل فرعون فمَنَعَ عنهم العذاب[2].

سرُّ اختيار ﴿ءَالِ﴾:

تعظيم نعمة الإنجاء لعظيم شأن المنَجيِّ منه

الآل يُراد به الأقاربُ والعشيرة والموالي وخاصَّةُ الإنسانِ وأتباعُه، والمراد من آل فرعون وَزَعَتهُ ووُكلاؤه، ويختصُّ الآل بالإضافة إلى ذي شأنٍ وشرَفٍ دُنيويٍّ ممّن يعقل، ولمّا كان فرعون في الدُّنيا عظيمًا، وكان الخِطاب متعلّقًا بنجاةٍ دُنيويَّة من عظيم في الدُّنيا أطْلقَ على أتباعه (آل)، وخصوصيَّة لفظ ﴿ءَالِ﴾ هنا أنّ المقام لتعظيم النِّعمة وتوفير حقِّ الشُّكر بما يَحُفُّ بها؛ فالنجاة من العذاب وإن كان نعمةً مُطلَقًا إلّا أنّ كون النّجاة من عذاب ذي قُدْرَةٍ ومكانةٍ أعظَم؛ لأنّه لا يكاد يَنْفلِت منه أحَدٌ[3].

فائدة ذِكر المضافِ إليه:

لَولا الآل لَما ثبت الأمـر لفرعون وآلَ

التّقييد بقوله تعالى: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مع ذِكر المضاف ﴿ءَالِ﴾ دون الاكتفاء بالمضاف إليه ﴿فِرْعَوْنَ﴾ يَحمل واقعًا تاريخيًّا، وهو

(1) السّامرّائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، ص: 66.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/323.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.

إنجاؤهم من آل فرعون لا من شخص فرعون، إضافةً إلى أنّ ذِكرَ آل فرعون يَحمل في طيّاته معاني التّجبُّر والتّعاظم والخُيَلاء والجهل؛ فكأنَّ القرآن عبَّر عنه بالمُركّب الإضافيِّ ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، وهذا فيه ما فيه من الإيجاز والاختصار، "وإنما جُعلتِ النّجاة من آل فرعون ولَم تُجعل من فرعون مع أنّه الآمِرُ بتعذيب بني إسرائيل؛ تعليقًا للفعل بمَن هو من مُتَعلّقاته، وتنبيهًا على أنَّ هؤلاء الوَزَعة والمُكلَّفين ببني إسرائيل كانوا يَتجاوزون الحَدَّ المأمورَ به في الإعْنات على عادة المُنفِّذينَ، فإنّهم أقلُّ رحمةً وأضْيَقُ نفوسًا من وُلاةِ الأمور"[1]؛ فهو لَم يَستمْكن وحدَهُ من الظُّلم وإنّما بمساعدة الآل والوكلاء، ولَولا الآل لَما صار الأمر إلى فرعون وآلَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ السَّوْم:

عامل آلُ فرعون بني إسرائيل معامَلةَ الأنعام في الإذلال والتَّحقير

في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ورد لفظ السَّوْم، وفيه من بديع الاستعارة، حيث شبَّه إذلال بني إسرائيل بسوْم الأنعام، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّبعيَّة، والاستعارةُ أبلَغُ من الحقيقة، إذ تشبيه بني إسرائيل بالأنعام من جِهَةٍ، وإذلالُهم بإطعام الأنعام، تقبيحٌ لذُلِّهم، وبيان صَغارِ حالهم، ووَضاعة شأنهم، وهو ما يكشف عن عَظيم شأن الإنجاء، وكبير أمْرِ الامتنان.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارِع:

استمرار المَذلَّة وتتابع العذاب كنايةٌ عن دَيْمومَتِهِ

فعل السّوْم المستعمل في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيه معنى الإذلال والاحتقار والإرهاق، مع الدَّوام والاستحضار الّذي تمثِّلُهُ صيغة الفعل المضارع، فليس السّوْم حينًا ما ويَنقطع، وإنَّما فيه من الاستمرار والتَّتابُعِ ما فيه؛ لبيان عَراقة آل فرعون في التَّنْكيل بأعدائهم، بحيث صار عادتهم ودَيْدَنهم تعذيبَ بني إسرائيل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.

علّة فصْل جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾:

فُصلَتْ جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ إمّا لأنَّها حالٌ من آل فرعون، يحصل بها بيان ما وَقَعَ الإنجاء منه، وهو العذاب الشّديد الّذي كان الإسرائيليّون يُلاقونه من معامَلَة القِبْط لهم[1]، وإمّا أنْ تكون استئنافًا بيانيًّا، كأنّه قيل: ما فعل بهِمْ أو ممَّ أُنْجوا؟ فأجيب بما ذُكِر[2].

مناسَبة الألفاظ:

اجتماعُ الإذلالِ مع كثرةِ ألوان العذاب مضاعَفةٌ في الهوان

جاء لفظ ﴿سُوٓءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ متناسِبًا مع لفظ (السّوْم)، ويشتمل السّوء ألوانًا شَتّى من العذاب؛ كالجَلْد والسُّخْرَة والعمل بالأشغال الشّاقَّة، فكأنَّ كلَّ حياتهم ذلٌّ وعذابٌ، وهذا يناسِب المعنى اللُّغويَّ للفعل (سام) الّذي يدلُّ على التَّرْك، فالسّوامُ من الحيوانات هي المَتروكة[3]، وفي هذا إيذانٌ بتركِهم لأذى فرعون، واستباحته لهم ولكلِّ مَن يتبَعهم مع شِدَّة الاستهانة، وفيه تصويرٌ بأنَّهم كالسّائمة من الأنعام الّتي ترعى كلَّ ألوان العذاب، فهي دلالةٌ على العموم، وشديدِ الإهانة.

توجيه المتشابِه اللَّفظيِّ في الفصْل والوَصْل:

الحذْف القرآنيُّ يكشف عن حالةٍ نفسيَّةٍ عاشها موسى ﷺ بعد نجاتِه من الذَّبْح

لسائلٍ أنْ يَسألَ عن سرِّ ذِكر الواو في سورة إبراهيم وحذْفها من البقرة والأعراف؟ والجواب أنَّ ذلك مُقترنٌ مُرتبط بالسّياق، فجاء تَعداد النِّعم في سورة إبراهيم على لسان موسى ﷺ فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بخلاف ما جاء في سورتي البقرة والأعراف؛ فإنَّ تعداد النّعم كان من الله ﷻ، فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: 49] وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/41.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/323.

فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: 141] فعندما تَكلّم ﷺ كان هناك بُعدٌ ذاتيٌّ، بمعنى أنّ كَليم الله عندما خاطب قومه مُذكِّرًا بنِعَم الله ذكَّر نفْسَه قبل أن يذكِّرَهم بها، إذ كان ﷺ أوَّل المُنعَم عليهم، فلولا رحمة الله بموسى ﷺ لكان في عداد المَذبوحين، فقد تَجلّى فضْل الله على نبيِّه الكليم بإنقاذه من التَّذبيح الّذي كان وقت ولادته؛ فإنه قد وجب عليه شُكر ربّه، وهذا ما كشفَتْ عنه الواو، فهو يعدِّد نِعَم الله على بني إسرائيل من جهةٍ، وفي الوقت نفْسِه يَشكر ربّه على ما أوْلاه من نعمة الحياة؛ فكأنّه يقول لبني إسرائيل: اذكروا نِعَم الله عليكم، واذكروا نعمة النّجاة من التّذبيح، الّتي لولاها لكنتم وكنت أنا كذلك ممّن هَلك على أيدي آل فرعون.

وبيان ذلك أنّ مقتضى حرْف العطف أن يَجعلَ تَغايرًا بيْن المعطوف والمعطوف عليه، أي أنّ التّذبيح غيرُ سَوْمِهم سوء العذاب، ولكنَّ الأمر على خِلاف ذلك إذ إنّ التّذبيح جُزءٌ من العذاب العامّ الّذي حلَّ ببني إسرائيل، وإلّا لَلَجأْنا إلى جعل العذاب عذابًا معنويًّا كالاستعباد؛ وهو أحَد الوجهَين اللّذين ذَكرهما الآلوسيّ رحمه الله، وهو مرفوضٌ؛ لدلالة الآيتَين على أنّ العذاب ليس عذابًا معنويًّا بجعْل التّذبيح والتَّقْتيل بيانًا وتفسيرًا للعذاب، والقِصّةُ؛ واحدة فسَقَط هذا الوجْه.

فقد استحضَر موسى ﷺ معنًى قائمًا في نفْسه لا يكاد يغيب عن ناظرِه، وهو أنّه كان في عداد المذبوحين ولكنَّ رحمة الله اقتضَتْ شيئًا آخَر، فهو يَستحضر في لحظة تَعداد النِّعم أمْرَ التّذبيح، فعندما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ استحضَر في هذه اللّحظة فظاعة التّذبيح فجعله أمرًا آخَر غير العذاب؛ فكأنّ التّذبيح شيءٌ والعذابَ شيءٌ آخَر، فقال ﷻ: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وهو من الأبناء الّذين كانوا يُذبحون ولكن الله استثناه أن يكون في عداد هؤلاء الأبناء، فاعْلَم تلك الحالة النفْسيَّة الّتي يعيش فيها كليمُ الله تَعْلَم لماذا عَطَف بالواو، ولماذا جعَل التّذبيح شيئًا غيْر العذاب، وبالفعْل فإنَّ التّذبيح كان أشدَّ أنواع العذاب على بني إسرائيل، يقول ابن الزّبير الغرناطيّ عن سرِّ عطْف التّذبيح على العذاب: "عيّن بالذِّكر أشَدّها وأعظمها امتحانًا، فجيءَ به معطوفًا لأنّه مُغايرٌ لِما تقدَّمَه؛ فقيل: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فعيّن من الجملة هذا، وخصَّ بالذِّكر تعريفًا بمكانه وشِدَّة الأمر فيه"[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التأويل: 1/57.

ممّا تقدَّم يتبَيَّن لنا أنّ الواو قد كشفَتْ عمّا في أعماق نفْس موسى ﷺ، من شُكرٍ لربِّه ﷻ، وشعور بالنّجاة من عذاب التّذبيح الّذي كان سائدًا في بني إسرائيل على أيدي آل فرعون، وهي دعوةٌ كذلك لهؤلاء الّذين نالوا من فضْل الله ﷻ، أنْ يَستشعِروا فضْل ربِّهم عليهم في كلِّ وقْت وحينٍ، فهذه بعض أسرار هذا الحرْف القرآنيِّ المُعجِز في هذا السّياق، تبيّن لنا ذلك كُلّه من خلال تَدبُّر السّياق الّذي وقعَتْ فيه الآيات[1].

توجيه المتشابِه اللَّفظيِّ باختيار المُفرَدة:

تعدُّد مِحَن بني إسرائيل

التَّقْتيل أعمُّ من التّذبيح؛ فبيْنهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، فكلُّ تذبيحٍ تقتيلٌ، وليس كلُّ تقتيلٍ تذبيحًا، فللتّقتيل عدَّة صوَرٍ؛ منها: صورة الذَّبْح وهي أشَدُّها؛ وذلك لمساواة الإنسان بالذّبيحة الّتي أصبحَت اسمًا لِما يُذْبح من الشّاءِ، وصورة الإلقاء من شاهِقٍ، وصورة الصَّلْب، وصورة الشَّنْق، وما إلى ذلك من صوَر يَتفنَّن فيها المجرمون.

أمّا الذَّبْح فلا يوجد له سوى صورةٍ واحدة، وهي قطْعُ الحُلقوم من باطنٍ عند النَّصيلِ؛ وهو مفْصل ما بين الرّأس والعُنُق، أي: مَوْضع الذَّبح من الحَلْق[2]، وقد ذكرَتْ آية البقرة وإبراهيم التَّذبيح: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، وآية الأعراف التّقتيل: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: 141]، والحقُّ ﷻ يُريد أن يلْفِتَنا إلى أنّ فرعون حينما أراد أن يَنتقم من ذرّيّة بني إسرائيل انتَقَم منهم انتقامَين؛ مرّةً بالذّبح ومرّةً بالقتْل[3].

سرُّ التَّعبير بالمضارع المضعَّف:

تـصـويـرُ كـثـرةِ الذَّبح وتجدُّده

جاء فعلُ التَّذبيح في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ دالًّا على التّضْعيف وعلى الكثرة والقَصْديَّة المُطْلَقة في إيقاع التّذبيح؛ لأنَّ المعنى

(1) المثنّى عبد الفتّاح، نظريّة السيّاق القرآنيّ، ص: 220 فما بعدها.
(2) المثنّى عبد الفتّاح، نظريّة السّياق القرآنيّ، ص: 225.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/324.

الرّئيس لصيغَة (فعّل) هو الدّلالة على التّكْثير، وقد جاء في كتاب سيبويه أنَّه إذا أردْتَ كثرة العمل قلتَ: كسّرْته وقطّعْته ومزَّقْته، وفعّلت إدخالها لِتَبْيين التّكثير[1]، والتّكثير يُشير إلى اشتراك آل فرعون في تعذيب هؤلاء، فكلُّهم يَدٌ واحدةٌ متَّفقون على إيقاع الضَّرر بِبَني إسرائيل، وممّا يُقوّي هذا التّعبيرُ بالمضارع؛ فإنَّه يُصوِّر كثرةَ التَّذبيحِ واستمراريَّته فيهم.

فائدةُ التَّعبير بالأبناء دون الأوْلاد:

تخصيص المَذبوحينَ بالذُّكورِ فيه زيادةُ امتنانٍ على الذّكور

المقصود بالأبناء في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الذّكور دون الإناث، وذَبْح الذّكور دون الإناث مَضرّة من وجوه: **أحدها**: أنّ ذبْح الأبناء يقتضي فناء الرِّجال، وذلك يقتضي انقطاعَ النَّسْل؛ لأنَّ النِّساء إذا انفردْنَ فلا تأثير لهُنَّ البَتَّة في ذلك، وذلك يُفْضي آخِر الأمر إلى هلاك الرّجال والنّساء، و**ثانيها**: أنّ هلاك الرّجال يقتضي فساد مصالِح النّساء في أمْر المَعيشة، فإنَّ المرأة لَتَتمنّى الموت، لِما قد يَقَع عليها من نَكَد العَيْشِ بالانفراد فصارَتْ هذه الخَصْلَةُ عظيمةً في المِحَن.

و**ثالثها**: أنّ قتل الولد عَقيبَ الحمْل الطّويل وتَحمُّل الكَدّ والرّجاء القويِّ في الانتفاع بالمَولود من أعظَم العذاب؛ لأنَّ قتله - والحالة هذه - أشدُّ من قتْل مَن بَقيَ المدَّةَ الطّويلة مُستمتِعًا به مسرورًا بأحواله، و**رابعها**: أنّ الأبناء أحبُّ إلى الوالدين من البنات، ولذلك فإنَّ أكثر النّاس يَستثقِلون البنات ويَكرهونهن وإنْ كثُرَ ذُكْرانهم[2].

فلهذه الأوْجُه وغيرِها كان قتْلُ الأبناء أشدَّ من قتْل البنات، ممّا يزيد من اللّوْعة، ويَرفع من شأن الامتنان بالإنجاء من هذا البلاء، فلولا إنجاءُ الله تعالى لاسْتَمرَّ القتل في الذُّكور، فهذه نِعمةٌ مستصحبةٌ، ومِنَّةٌ دائمة.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/64.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/504.

نكتةُ الإضافة إلى ضمير المخاطَبين:

مَن اعتبرَ الماضيَ الأليم بالواقع الرَّحيم عظُم شُكرُه

أُضيف الأبناء إلى ضمير المخاطَبينَ في قوله تعالى: ﴿أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ ليتناسبَ النَّظْم القرآنيُّ مع ما قبله من ضمائر المخاطبينَ ﴿أَنجَىٰكُم﴾، و﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾، فجاءت ﴿أَبۡنَآءَكُمۡ﴾؛ لتُناسِب ما قبلها، مع ما في هذه الإضافة من إبراز عاطفة المخاطَبين، فهُمْ أبناؤكم الّذين ذهبوا، لا أبناء غيركم؛ فاعتَبِروا ذلك بما أنتم عليه تَشكروه سبحانه.

نكتة استعمال لفظ الاستحياء بصيغَة المضارِع:

الإذلال الخاصُّ بالأعراض أشدُّ ما يكون على الأشراف

اختار النَّظْم مُفردةَ الاستحياء في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ وهي استفعالٌ يدلُّ على الطَّلَب للحياة، أي: يُبقونهنَّ أحياء أو يَطلبون حياتَهُن، ووَجْه ذِكرِه التَّذكيرُ بأنَّ ما نالهم من مصائب الاستحياء للإناث كان المَقصد منه خبيثًا، وهو أنْ يَعتدوا على أعراضهنَّ ولا يَجِدن بُدًّا من الإجابة بحُكْم الأسْرِ والاسْترقاق، فيكون قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ كنايةً عن استحياءٍ خاصٍّ[1]، والفعل المضارع ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾، دالٌّ على تَجدُّد الاستحياء واستمراره، بل الاجتهادِ فيه حالًا بعدَ حالٍ، ووَقتًا بعد وقتٍ مع استحضار صورة استحيائهم، وفي هذا إصرارٌ على الإذلال والمُضِيِّ فيه.

نكتةُ استعمال لفظ ﴿نِسَآءَكُمۡۚ﴾:

المِحنةُ في النِّساء أشدُّ بلاءً عند طائفةٍ من قتْلِ الأبناء

آثَر النَّظم الكريم لفظةَ النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ لأنَّه قائمٌ على إبقاء عُنصر الأنوثة بحيث يَتمتَّع بهنَّ آل فرعون؛ لذلك لَم يَقُل: أزواجكم، أي أنَّهم يريدونهنَّ للمُتعة، وذلك للتَّنكيل ببَني إسرائيل[2] تنكيلًا خاصًّا، ثُمّ إنَّ لفظة نِساء أعمُّ من لفظة أزواج؛ فالنّساء عامّةً تُطلَق على المتزوِّجة وغير المتزوِّجة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/423.

فكانت المِحنة شديدةً، والخَطْبُ عميمًا، وأضيف لفظُ النّساء إلى ضمير المخاطَبينَ كي يتناسَب النّظْم القرآنيُّ مع ما قبله من ضمائر المخاطبينَ، ولِما فيها مِن مَزيد إشعال فَتيل الغَيْرة بأنَّ الّذي وقعَ يُدمي القُلوب؛ فالاستحياء بغرض الابتذال كان لنسائكم لا لغيْرهنَّ.

توجيهُ تخصيصِ هذه المِحن بالذِّكر:

إلــزامُ الحجَّة ببَني إسرائيل بإنجائهم من أعظمِ المِحنِ

خصَّتِ الآية هذه المِحن بالذِّكر دون غيرها؛ لأنَّها كانت من أعظَم ما يُمتحن به النّاس من جهة المُلوك والظَّلَمة، وصار تخليص الله إيّاهم من هذه المِحن من أعظَم النِّعم؛ وذلك لأنّهم عايَنوا هلاك مَن حاول إهلاكهم، وشاهَدوا ذُلَّ مَن بالَغ في إذلالهم، ولا شكَّ في أنّ ذلك من أعظَم النِّعم، وتعظيمُ النِّعمة يوجب الانقيادَ والطّاعة، ويقتضي نهاية قبْح المخالَفة والمعانَدة، فلهذا السّبب ذَكَر الله تعالى هذه النِّعمة العظيمة، مبالَغةً في إلزام الحُجَّة عليهم وقَطْعًا لِعُذْرهم[1].

سرُّ تقديم الذَّبْح على الاستحياء:

إزهـاق النُّفوس أشــــدُّ مــن استحياء النِّساء في الجُملة

قُدِّم ذِكر ذبْح الأبناء على استحياء النّساء؛ لأنّه أصعَبُ في الجملة عند النّاس، وإن كان الاستحياء أعظَمَ من القتْل لدى الغَيور[2]؛ فالبَشاعة مُتمثِّلةٌ في مَنظَر الدّماء وهي تُسْفك بغير حقٍّ، وإزهاق النُّفوس بالباطل وبدَم باردٍ ممّا يُشعل فَتيل الدَّم البارد! فكان التَّقديم لبيان قسْوة العذاب وشِدَّته.

بلاغة استعمال اسم الإشارة:

بلاء المِنحِ أشدُّ في الآخـرةِ من بلاء المِحن

في عَوْد اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ بلاغةٌ نادرةٌ؛ لأنّه يجوز أن يعود على المحنة والمنحة، فيجوز عَوده إلى الإنجاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وهذه منحة، ويجوز كونها محنة عظيمة، إن جُعلت الإشارة راجعةً إلى قتْل الأبناء

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/504.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.

واستحياءِ النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، إذِ البلاءُ يتردَّد بيْن النِّعمة والمِحنة، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: 168]، فالبلاء يكون بالمسارِّ ليَشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليَصبروا، وتارةً بهما ليرغبوا ويرهبوا[1]، فإن سَأل سائل: فكيف يكون الإنجاء في حقِّ بني إسرائيل بلاءً؟ فالجواب ما وَقَعَ منهم بعد ذلك دليلٌ على أنَّهم وَقَعوا في بلاءٍ عظيم، إذ لَم يَشكروا، ولَم يَتذكَّروا حقَّ المُنْعِم سبحانه عليهم، وعاقبة ذلك في الآخرة أشدُّ ما كان لهم من سَوْم العذاب في الدُّنيا.

نكتةُ إيثار لفظ الرُّبوبيَّة المضاف إلى الضَّمير:

تربيةُ الله لعبادِه بالإنعام والتَّسليط بالعِقاب

في التَّربية إنعام وتأديبٌ لِما يُقترَف من حسنات وسيِّئات، وقد آثَر النَّظْم ذِكرَ الرُّبوبيَّة دون ذِكر لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقد جاءت اللَّفظة دالَّة على تسليط آل فرعون عليهم لجرائمهم وعِصيانهم، أو ببَعْث موسى عليه السلام وتَوفيقِه لتَخْليصِكم أو بهما جميعًا[2]، وقد يُقال: نسبَ البلاء إلى الله تعالى، وهو الربّ الخالق، للإشارة إلى أنَّ تمكين فرعون من ذلك كان اختبارًا من الله تعالى حتّى يُمْتَحنوا بالنِّقمة، وتُصْقَل نفوسهم بها[3]، والخِطاب للجميع؛ لبيان امتنانه على كلِّ مَن يَنتسب إلى بني إسرائيل لا لجماعةٍ منهم.

غرضُ التَّنكير معيَّن بالوَصف:

تعظيمُ البلاء باعتبارِ مَن وقع عليهم

جاء تنكير لفظ ﴿بَلَآءٌ﴾ في هذا السّياق للدّلالةِ على التَّفخيم والتَّعظيم، فالبلاء إنْ منحةً أو محنة خارجٌ عن مَقدور البشَر؛ لذا وصفَ بقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾، والعِظَمُ بالنِّسبة للمخاطَب السّامع لا بالنِّسبة إليه تعالى؛ لأنّه العظيم الّذي لا يَستعظم شيئًا، وغَرَض التّنكير مأخوذ من الوَصْف.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3998.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَّبح والقتل:

الذَّبح عمل معلومٌ، والقتل ضُروبٌ مختلفة[1]. وقيلَ في الفرْق بينهما: إنّ الذّبح بقَطْع الأوْداج، والقتْلَ بإيقاع الفعل في المَحلّ مع التَّجافي، ويَعني أنَّ القاتل يَضرِب من بعيد مُتجافيًا كالنّائي عن الشّيء لا يَدري أيُصيب المَحلَّ أم لا[2]؟ ثُمّ إنَّ القتل قد يكون بمعنى اللَّعْن، قال الله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: 17] ومثلهُ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ [المدثر: 19]، أي: لُعِن كيف قدَّر الباطل على النَّبيِّ ﷺ، فقال: إنّه ساحِر[3]، وهذا لَيس موجودًا في الذّبح.

البلاء والابتلاء والمصيبة:

الابتلاء: يكون في الخير وفي الشَّرِّ، وإذا أُطلِق كان في الشّرّ غالبًا، فإذا أُريدَ به الخير قيِّد به، والبلاء والابتلاء أعمُّ من المصيبة من وَجْهٍ وأخَصّ من وَجْه آخَر، فالبلاء والابتلاء أعمُّ من المصيبة من وجْه؛ لأنَّهما يكونان في السَّرّاء والضَّرّاء، وأمّا المصيبة فلا تكون إلّا في الضّرّاء، ولكن في الوقت نفْسه البلاء والابتلاء أخَصّ من المصيبة من وجْه آخَر؛ لأنّ المصيبة تُصيب المكلَّفين وغيرَهم، كالأطفال، بينما البلاء والابتلاء لا يكون إلّا في حقِّ المكلَّفين، وعلى هذا فالمَرْء إذا اخْتُبِر بنِعمة أنعَم الله عليه بها لِتَبَيُّنِ ما سيكون حاله من شُكرٍ لتلك النِّعمة أو كُفرانٍ لها، فهذا إنّما يوصَف بأنّه بلاءٌ وابتلاء، ولا يمكن وَصْفه بأنّه مصيبةٌ، وأمّا إذا اختُبِر ببعض الفواجِع والدَّواهي لِتَبَيُّنِ ما سيكون عليه حاله من الصَّبر أو الجزَع، فهذا يوصَف بأنّه مصيبةٌ وبلاءٌ واختبار[4]، وقد يُقال: إنّ زيادة المَبنى دالَّةٌ على زيادة المعنى، والابتلاء أكثر مبنًى من البلاء، فالابتلاء فيه معنى الافتعال، فَفيه المَشقَّةُ والقَصْديَّة.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.
(2) المطرزي، المغرب، ص: 86.
(3) العسكريّ، الوجوه والنظائر، ص: 402.
(4) أبو فيصل البدرانيّ، فقه الابتلاء، ص: 16.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»